جامعـــــــــــــة بسكـــــــــرة

كليـــــــــة الآداب واللغـــــــات

قســم الآداب واللغة العربية

محاضــرات في مقيــاس النقد الأدبـــي المعاصـــر

لطلبـــة السنـــة الأولى مـــاستر

شعبـــة: الأدب الحديث والمعاصـر

المحاضــرة الثالثة بعنـــوان: مفهوم السيميائية ورواجها في الوطن العربي

إعداد الأستاذ الدكتور: بشير تاوريريت

السنة الجامعية: 2020-2021

1- في ماهية السيميائية:

لقد تعددت مصطلحات السيميائية من باحث إلى آخر، وإلى حد يصعب معه التمييز بين دلالة هذا الفيض من المصطلحات، فهناك من يقول بعلم العلامة أو علم الإشارة أو السيميولوجيا أو السيميوطيقا... وما إلى ذلك من المصطلحات الأخرى الدالة في عمومها على فكرة النظر إلى العلامة اللغوية بوصفها إشارة تدل على أكثر من معنى، لاسيما وأن هذه المصطلحات الرديفة لبعضها البعض تتفق فيما بينها على هذه الدلالة الموقدة في النظر إلى أنظمة العلامات بوصفها أنظمة رامزة أو دالة. ومثل هذا النظر متجذر في الدراسات اللغوية القديمة قدم الإنسان، وفي الحضارة الصينية واليونانية والرومانية والعربية، بيد أن هذه التأملات بقيت أسيرة تجربة ذاتية لا ترقى إلى مستوى النظر العلمي الموضوعي[1]، والواقع أن التأمل في العلامة نشأ لا عن قصد المعرفة، كما يخال لنا – بل عن قصد التشكيك في المعرفة، أي من منطلق رفض هيمنة معرفية معينة، فالمدرسة الشكلية الإغريقية تنطلق من فكرة مفادها أن الحواس من شأنها أن تخوننا، وأن المختصين يناقض بعضهم بعضا، وتبعا لذلك يجب عدم التصديق بكل ما يزعم، والتشكيك في كل ما يقدم ويقال[2]، وأخذت السيميائية تتبلور مع تقدم العلم والعلوم الإنسانية بصورة خاصة، حيث مرت بمراحل عديدة، وأول باحث قدم مصطلح السيميولوجيا هو الفيلسوف "ج. لوك". غير أن الدراسة السيميولوجية في عصره لم تتجاوز إطار النظرية العامة للغة، وفلسفتها النظرية[3].

إن هذه الملاحظات عن واقع تجذر الدرس السيميائي في التراث اللغوي والفلسفي لا تعني بتاتا أن هذا العلم قد اكتملت أجزاؤه، والتحمت مفاصله قديما، ذلك أن السيميائية بتجلياتها النظرية الفضفاضة، وباتجاهاتها المتباينة تعد علما حديثا وثمرة من ثمار القرن العشرين، وهي لا تدرس العلامات في كنف الحياة الاجتماعية فحسب، بل إن السيميائية

---

[1] بيار جيرو، علم الإشارة، ترجمة أنوطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت، ط1، ص 10، 11.

[2] سيزا قاسم، مدخل إلى السيميوطيقا، ص 14.

[3] بيار جيرو، علم الإشارة، ص 18.

تزعم لنفسها القدرة على دراسة الإنسان دراسة متكاملة، من خلال العلامات المبتدعة من قبل الإنسان، وذلك بهدف إدراك واقعه[1]، فهي علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها، وهذا يعني أن نظام الكون بكل ما يحويه من علامات ورموز، هو نظام ذو دلالة؛ أي أن السيميائية هي علم يدرس بنية الإشارات، وعلائقها في هذا الكون، وكذلك توزعها ووظائفها الداخلية والخارجية[2].

وإذا كانت السيميائية تنظر إلى العلامة اللغوية بوصفها إشارة سابحة في فضاء دلالي مكثف وملغم بالإيحاءات، فإن السيميولوجيا قد اهتمت بالعلامات اللغوية واللالغوية في آن واحد، " فالنظام السيميولوجي ليس دائما بالضرورة أن يكون لغة، فقد يكون رسما، المهم أن يكون التعبير بوساطة أنظمة من العلامات، قد تكون علامات السنن لسانية، وقد تكون أنظمة علامات أخرى"[3]. والواقع أن التعريف الذي ارتدته السيميوطيقيا لا ينأى كثيرا عن هذا التعريف، فهي أيضا دراسة شكلانية للمضمون، ينطلق فيها الباحث السيميوطيقي من الشكل أو الدوال لمساءلة المضامين أو المدلولات، مساءلة تقوم أساسا على البحث المستمر فيما تخفيه الدوال من إيحاءات، والمهم في هذا البحث ليس هو المدلولات بحد عينها، وإنما هو طريقة تأليف هذه المدلولات، ومجاورتها بعضها رقاب بعض؛ ولأن الباحث السيميائي لا تهمه المعاني التي يتضمنها الشكل بقدر ما تهمه الكيفية التي قيل بها هذا المضمون، ومن ثمة فإن لهذا المضمون شكلا. ويبقى النظر في العلاقات المؤلفة لهذا الشكل، وكذا وظيفة الوحدات والملفوظات هو أهم شيء تطمح إليه السيميائية والسيميولوجيا

---

[1] ينظر: فردنان دي سوسير، محاضرات في اللسانيات العامة، 193. ثم ينظر: عمار شلواي، السيمياء، المفهوم والآفاق، محاضرات الملتقى الوطني الأول " السيمياء والنص الأدبي "، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة،2000، ص16.

[2] بيار جيرو، علم الإشارة، ص9.

[3] إبراهيم صدقا، السيميائية، مفاهيم، اتجاهات أبعاد، محاضرات الملتقى الوطني الأول " السيمياء والنص الأدبي "، ص77.

والسيميوطيقا، وإن تعددت هذه المصطلحات فإن مدار مقاربتها للعلامات مهما كان- شكلها ونمطها – يبقى واحدا.

هذا ما يمكن قوله عن ماهية السيميائية في علاقاتها بالسيميولوجيا والسيميوطيقا. وإن شهدت هذه المصطلحات تجليات محتشمة في الدراسات التراثية القديمة، إلا أن التأسيس الحقيقي لعلم السيمياء قد ظهر بشكل واضح مع العالم اللغوي السويسري " فرديناند دي سوسير"، ومقول قولنا هذا لا ينفي بتاتا المجهودات القيمة التي تقدم بها الفيلسوف الأمريكي " تشارلز سندرس بيرس " في حديثه عن العلامة والمؤشر والأيقون، كما سنرى في محطات لاحقة من هذا البحث.

2- رواج السيميائية في الوطن العربي:

بالرغم من القصور الذي منيت به السيميائية في ظل تصريحات أقطابها، إلا أن هذا القصور لم يمنع الساحة النقدية العربية من اعتناقها خاصة في فترة الثمانينيات، ومن الأسماء التي أسست لها بوجه خاص نذكر(محمد مفتاح، عبد الفتاح كليطو، محمد الماكري في المغرب،...)، يضاف إلى ذلك مجهودات عبد الله محمد الغذامي في السعودية وعبد المالك مرتاض، ورشيد بن مالك وعبد القادر فيدوح وحسين خمري في الجزائر، وقاسم مقداد في سوريا.. دون أن ننسى المساهمة القديمة التي تقدم بها الناقد المصري صلاح فضل في كتابه

" شفرات النص: دراسة سيميولوجية القص والقصيد "[1].

وسنحاول في الفقرات التالية أن نتعرض إلى أهم الممارسات النقدية التي اعتنقت السيميائية، وسيجري التركيز على أقطاب ثلاث مثلوا هذا الاتجاه أحسن التمثيل في وطننا العربي، وهؤلاء هم: عبد الملك مرتاض، وعبد الله محمد الغذامي ورشيد بن مالك.

[1] الصادر عن: عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط2، 1995.

2-1- عبد الملك مرتاض:

يأتي عبد الملك مرتاض في طليعة النقاد الجزائريين الأوائل من حيث استخدامه لهذه المناهج النقدية الحداثية بعدما أدرك فشل المناهج التقليدية في مداعبتها لجماليات النصوص الأدبية، شن ثورته العارمة عليها، داعيا في الوقت نفسه إلى تجاوز التقليد ممتطيا في ذلك صهوة الحداثة النقدية كأساس للتمييز:"فليس بالضرورة أن نطلق الصفات الجزافية على الدراسات الحديثة فنزعم أن هذه بنيوية، وهذه نفسية، وتلك اجتماعية وهلم جرا..." [1].

هذا وقد أكد عبد الملك مرتاض على ضرورة إلغاء السؤال التقليدي عن إتباع منهج من المناهج النقدية، حيث دعا إلى التساؤل التالي: " هل هذا المنهج الذي تناولنا به هذا النص الأدبي حداثي أو تقليدي"[2]. ولعل هذا ما دفعه إلى الاهتمام بالنصوص الأدبية القديمة، ومقاربتها برؤى نقدية حداثية، تستلهم زادها النقدي من بؤرة هذه المناهج النقدية المعاصرة، وهو الشيء الذي جعل دراساته تتسم بسمة مميزة تكشف عن مدى استيعابه ووعيه لمختلف النظريات النقدية الحديثة، وإلمامه بالتراث العربي.

إذا ما ألقينا نظرة عابرة على كتابات عبد الملك مرتاض في مجال السيمياء، فإننا نعترف مبدئيا بأن نظرة عبد الملك مرتاض للسيميائية في أبسط تعريفاتها تعني "نظام السمة" أو شبكة من العلاقات المنتظمة بسلاسل، والواقع أن مرتاض كثيرا ما يمزج في أعماله الإجرائية بين السيميائية والتفكيك، وقد تجلى ذلك في معالجته المركبة، وفي مجال الشعر نذكر دراسته لـ:" أي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة.

ومن خلال هذه الإجراءات السيميوتفكيكية، حاول عبد الملك مرتاض أن ينفذ إلى كنه القصيدة عبر خطوات جوانية، قارب فيها بنية النص مشرحا إياه إلى مجموعة من البنى في

---

[1] عبد الملك مرتاض، أ.ي دراسة سيميائية تفكيكية أين ليلاي لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص13.

[2] ينظر: عمار زعموش: النقد الأدبي في الجزائر، قضاياه واتجاهاته، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، 2002، ص184.

تحليله لزقاق المدق. وأما في دراسته لأين ليلاي فقد عمد إلى تحليل بنية النص وزمنه الشعري وتركيبه الإيقاعي وإن كانت هذه القصيدة تبدو قصيدة غزلية يتغزل فيها الشاعر بمحبوبته ليلى فقد بين عبد الملك مرتاض كيف تحولت ليلى في هذا النص إلى رمز مشبع بدلالات مكثفة وعديدة وهذا الرمز في النهاية هو ليس امرأة بقدر ما هو الوطن ولتوضيح ذلك نسوق الأبيات التالية:

أين ليلاي أينهـــــــــا؟ حيل بيني وبينها

هل قضت دين من قضى في المحبين دينها

أصلت القلب نـــــــارها وأذاقته حينـــــها[1]

وإذا ما تأملنا هذه الأبيات الثلاثة وجدنا أن معناها الأول يعبر عن حب الشاعر لحبيبته ليلى، وإذا غصنا سيميائيا خلف عبارات الشاعر ألفيناه يعبر بها عن حبه لوطنه، وهو المعنى الثاني الذي يمثل إيحاء أو إشارة سابحة في فضاء دلالي مكثف بألوان الوطنية هذا ما يمكن قوله عن مزاوجة مرتاض بين السيميائية والتفكيك، وقد عقبنا على هذه المزاوجة في حديثنا عن رواج التفكيك في الساحة النقدية العربية في محطة لاحقة من محطات هذا البحث.

2-2- عبد الله محمد الغذامي:

تمثل كتابات عبد الله محمد الغذامي فصيلة نقدية متميزة، حيث امتطى عبر مؤلفاته المتواضعة صهوة المناهج النقدية لاسيما التشريحية والبنيوية والأسلوبية والسيميائية، ومن كتبه الرائدة نذكر: " الخطيئة والتكفير" و" تشريح النص" فقد تعرض في كتابه الأول إلى المناهج النقدية المعاصرة بدءا بالبنيوية مرورا بالسيميائية وصولا إلى التشريحية، وقد جمع في هذا الكتاب بين التنظير والممارسة حيث حظيت السيميائية باهتمام كبير من لدن الناقد،

[1] عبد الملك مرتاض: أ.ي – دراسة سيميائية تفكيكية أين ليلاي لمحمد العيد، ص 170.

إذ اعتبرها ندا أو ضديدا نقديا للبنيوية، ويذكر أنه استعار اسمها الغربي بذلك ما حاوله بعض الدارسين العرب في تعريبهم لها إلى مصطلحات عديدة كـ (علم العلامات)[1].

وما يهمنا من الدراسات الإجرائية التي تقدم بها الغذامي في القسم الثاني من كتابه "تشريح النص" قراءته السيميولوجية لقصيدة "إرادة الحياة" لأبي القاسم الشابي حيث ابتدأ حديثه في هذه الدراسة عن اللغة فيقول: "إن اللغة نظام إشاري (سيميولوجي) والكلمة إشارة تقف في الذهن على أنها دال يثير في الذهن مدلولا وهو صورة ذهنية لموجود عيني"[2]، وهذا الحدث هو الدلالة. كان هذا عن دور الكلمة ثم ينتقل للحديث عن القراءة السيميائية للنص الشعري وعن دور المتلقي في العملية الإبداعية ثم يبدأ تحليله للقصيدة التي مطلعها:

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

ولابد لليل أن ينجـــــلي ولابد للقيد أن ينكســر

ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها واندثر[3]

واعتمد في تحليله لهذه القصيدة على مجموعة من العناصر كتحديد مصطلح الحركة والسكون، وذلك من خلال إحصاء أفعال القصيدة، ثم اعتمد مصطلح المد والجزر الذي تناول فيه توازن القصيدة وانكساراتها. ومن هنا يمكن القول أن الغذامي قد خطا خطوةهامة لا يستهان بها في مجال السيميائيات.

2-3- رشيد بن مالك:

حاول د. رشيد بن مالك أن يثبت وجوده كباحث وناقد جزائري في مجال السيميائيات، وقد عني بها تنظيرا وممارسة وترجمة وذلك من أجل إعلاء وتشييد صرح سيميائي جزائري

---

[1] عبد الله محمد الغذامي: الخطيئة والتكفير، ص 42.

[2] عبد الله محمد الغذامي: تشريح النص، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، سبتمبر، 1987، ص12.

[3] المرجع نفسه، ص 12.

وللأسف إن زعمنا أن هذا الصرح خال من الروح الجمالية التي يتطلع إليها النص الجزائري ذبيحا صاعدا"، فهذه الروح كادت تزهق تحت وقع تلك الآليات والموجّهات والعوامل التي طالما صفق لها د. رشيد بن مالك، فهذه الملاحظة الاعتراضية لا تنقص أبدا من شأن الناقد، لأنه وبكل تأكيد نقل إلينا التجربة السيميائية في مهدها الغربي بكل حذافرها، فقد كتب كتابا بعنوان "السيميائية بين النظرية والتطبيق" سنة1994، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه أعرب فيها عن مختلف التجليات النظرية والتطبيقية للدرس السيميائي وبشيء من الآلية والروح الميكانيكية الصاعدة.

هذا وقد ترجم جل الأفكار النظرية للسيميائيين الغربيين والألسنيين من أمثال فيرديناد دي سوسير، وتشارلز ساندرس بيرس، وجوليا كريستيفا، ورولان بارت، وجيرار جينات، وهذا ما تضمنه كتاب: "السيميائية أصولها وقواعدها" لمجموعة من المؤلفين كـ: ميشال أريفيه، وجان كلود جيرو، وإن كان هذا الكتاب يحوي جل أفكار أولئك السيميائيين، فإن عرض تلك الأفكار يفتقر إلى شيء من الشروحات التي من شأنها أن تزيل الكثير من الغموض والتعقيد الذي وقع فيه المترجم بسبب الترجمة الحرفية لتلك المصطلحات والمفاهيم.

وثمة دراسة ثالثة لرشيد بن مالك موسومة بـ: "البنية السردية في النظرية السيميائية"، حيث تناول في هذه الدراسة ثلاثة بحوث أساسية، سعى في البحث الأول إلى النظر في المكون السردي، والآليات التي تحكمه والقواعد التي تربطه بدءا من التحديد النظري للبرنامج السردي الذي يستند إلى تحليل مكونات البنية السردية وفحص العلاقات الوجودة بين الفاعل والموضوع والتي ترتهن في وجودها إلى مجموعة من الحالات والتحويلات التي تكون في تواليها نظاما قادرا على كشف بنية المكون السردي.

وأما في المبحث الثاني، فقد عمد فيه الباحث إلى ترجمة نص تعرض فيه إلى بيرنار بوتي Bernard Pottier بالنقد والتحليل في مسألة تمس إشكالية الثابت والمتحول في البرنامج السردي، انطلاقا من فرضية تطورية طبيعية.

ويأتي المبحث الثالث الذي خصصه لترجمة نص للباحث ج. ك. كوكي J.C Coquet يشمل السيرة الذاتية والعلمية لـ أ.ج غريماس A. J Greimas[1].

واللافت للانتباه أن الأعمال السردية قد حظيت بحصة الأسد في الأطروحات السيميائية التي تقدم بها رشيد بن مالك منذ تأليفه لكتابه الأول: "مقدمة في السيميائية السردية"[2]، حيث تعرض في جزئه الأول إلى الأصول اللسانية والشكلانية للنظرة السيميائية، وذلك من أجل الكشف عن التيارات البحثية التي كان لها عميق الأثر في تأصيل قواعد البحث العلمي، وتقوية الحس المنهجي في ممارسة النقدية في تموجها السيميائي مصطلحا ومفهوما ويأتي الجزء الثاني من الكتاب عينه إمتدادا للجزء الأول ولـ:" قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص"[3]، من حيث الإطار المنهجي العام الذي يرتكز في المقام الأول على التدقيق في المفاهيم النظرية والاشتغال على المصطلح السيميائي برده من ناحية إلى المستوى التحليلي المتجانس معه، وإدراج ترجمته من ناحية ثانية، ضمن المصطلحية السيميائية في شموليتها بوصفها نظاما متماسكا مبنيا.

هذا وقد أشاد رشيد بن مالك بالإسهامات الباهرة التي حققتها السيميائية في مجال السرد دون سواه، ألا تراه يقول " حققت السيميائية قفزة نوعية في دراسة الأشكال السردية بخاصة، والتجليات اللسانية وغير اللسانية بعامة، فبسطت نفوذها العلمي على حقول معرفية متنوعة وأظهرت قدرة كبيرة في معاينتها وتقصيها بإقامة نماذج تحليلية مبنية أساسا على المنظور الافتراضي الاستنباطي"[4].

---

[1] ينظر: رشيد بن مالك، مقدمة البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، ط1، 2001، ص8- 9.

[2] الصادر عن: دار القصبة للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 19.

[3] الصادر عن: دار الحكمة، الجزائر، 2000.

[4] رشيد بن مالك: الفضاء السيميائي في رواية ريح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة، مجلة اللغة والأدب، ع 13، معهد الآداب واللغة العربية، جامعة الجزائر، 1998، ص 39.

وقد تجلى ذلك الاهتمام في تطبيقه لآليات ومبادئ المد السيميائي على العديد من الأعمال الروائية "كريح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة ورواية "عواصف جزيرة الطيور" للروائي خلاص جيلالي، حيث تعرض لسيميائية الفضاء في رواية "ريح الجنوب" إذ يعتبر أن التحليل السيميائي ينطلق من فرضية مفادها أن الفضاء نظام دال يمكن أن نحلله بإحداث التعالق بين شكلي التعبير والمضمون، وننظر إليه على أنه مركب كالكلام أي ما يدل عليه (المضمون) هو من غير طبيعة ما يدل به (التعبير) ويرتهن في وجوده الدلالي إلى الفعل الممارس فيه والقيم المحققة من استعماله[1].

ومن هنا اختار محورين فضائيين أساسيين في الرواية وهما القرية والمدينة، فأما واقع القرية بالنسبة لبطلة الرواية نفيسة نجده مأساويا تجمع فيه كل أسباب اليأس والضياع وفي مقابل ذلك كانت المدينة تعكس الجمال من خلال بنايتها وصخبها وحيويتها الدائمة فتبعث التجدد في ذات نفيسة التي احتدم الصراع داخلها نظرا لضيقها من حالتها في القرية.

ونلتقي في سياق آخر برواية "عواصف جزيرة الطيور" للروائي خلاص جيلالي، حيث قاربها رشيد بن مالك مقاربة سيميائية، محاولا بذلك الكشف عن رهانات القصة التي اعتبرها سياسة بالدرجة الأولى، وتعكس بشكل مباشر العلاقة بين السلطة والشعب في حقبة تاريخية طويلة تبدأ بالغزو الفرنسي للجزائر، وتنتهي بأحداث أكتوبر الأليمة التي هزت الجزائر عام 1988[2].

وهكذا توالت الأعمال النقدية في طيفها السيميائي للناقد الجزائري رشيد بن مالك، وقد لقيت هذه الأعمال صدى طيبا في الضائقة النقدية وبرغم ما اعتراها من غموض وتعقيد، قد يكون مرد ذلك إلى غياب سلطة الحس الفني عن هذا الناقد وهو الغياب الذي أوقعه في تلك

---

[1] رشيد بن مالك: الفضاء السيميائي في رواية ريح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة ، ص39.

[2] رشيد بن مالك: مجلة الملتقى الثالث " عبد الحميد بن هدوقة " مديرية الثقافة لولاية برج بوعريريج، سنة2002، ص143.

الميكانيكية الحائرة، ويبقى رشيد بن مالك واحدا من أساطين التأسيس للسيميائية السردية في الجزائر.

وبإجمال فإن هذه الممارسات السيميائية في وطننا العربي لا تزال بعيدة عن السيميائيات في مهدها الأوروبي. ويضاف إلى ذلك عدم انطلاقها من أرضية علمية صحيحة، ومعرفة شمولية عن الظاهرة الأدبية. ولعل هذا ما صرح به الدكتور حنون مبارك، حين أجرى مقارنة يسيرة بين النقد السيميائي في إيطاليا والوطن العربي[1]، إن مثل هذا الطرح النقدي لا يحمل في اعتقادنا أدنى غرابة ما دامت السيميائية غريبة عن عقر ديارنا النقدية، وأكثر ما تتجلى هذه الغربة النقدية وبأطيافها الآلية، البالية في الممارسات الإجرائية على النصوص التراثية وأحب أن أشير هنا إلى ملاحظة مفادها أن النص المعاصر هو أكثر النصوص الأدبية استجابة لتلك الآليات وقد يعود ذلك إلى تزامن ميلاد السيميائية في نضجها مع ميلاد هذه النصوص الشعرية المعاصرة في عنفوانها وتمردها عن سلطة المعاجم في سجنها الدلالي.

[1] ينظر: حنون مبارك: دروس في السيميائية، الدار البيضاء، ط1، 1987، ص6.